حقلنا...
وفصول اللعب

جودت فخر الدين

- ١ -

خرجْنا لنلعبَ
حقلٌ كثيرُ الندى،
وسماءٌ غبارُ
وعويلٌ دفينٌ يفرفرُ بين يديه النهارُ
ونحن صِغارُ
صِغارٌ، ولا نُحْسِنُ اللِعْبَ
نكبو، فيُفرحُنا كبوُنا
والجبالُ،
رجالٌ، تحيطُ بملعبنا
تحتويهِ،
وتُلْقي ظِلالاً
ترفرفُ في خطونا رهبةً وحناناً
جبالٌ كآبائنا
تستجيبُ لصيْحاتنا،
وتُعيدُ إلينا الصدى
نفحاتٍ من الدفء والخوفِ
نعْدو،
ونعْدو
على صدر ملعبنا المطمئنِّ
نُعفِّر وجْهَ البراري
ونسمع ذاك العويلا
يذوبُ عميقاً،
ويُبْكي السُّهولا.

- ٢ -

خرجنا لنلعبَ
هل علَّمتْنا البيوتُ
أنَّ أشواقنا عنكبوتُ؟
لها في السماء زوايا لتغفو،
فتنسلُّ منها خيوطٌ ملوَّنةٌ
تتراقص بين الحصى
إذ نُبعثرُهُ،
نبتنيه،
أكُنّا نُصدِّقُ أنَّ البيوت تُعلِّمنا؟
أم تُرى قد تركنا لها
أن تفيء على نفسها،
أن تكثِّفَ وحشتَها،
ثم تنفثنا خارجاً؟
يا بيوتَ الطفولةِ، لا تحزني
أعرفُ الآنْ
وقد مرَّ ما مرَّ من سنواتِ التشرُّد
كم كنتِ تنكمشين اختناقاً
وكم كنتِ تنتحبين
وكم كان فَيْؤُكِ ينهلُّ هدْراً
ونحن على الرمل نكبو،
ولا نُحْسِنُ اللِعْبَ،
كُنّا صغاراً
ومن لِعْبِنا لم نذُقْ غير طعمِ
السقوطِ
لماذا كبرنا سريعاً؟
وهل كان يفرحُنا كبْوُنا؟
يا بيوتَ الطفولة، لا تحزني
أعرفُ الآنْ
وقد مرَّ ما مرَّ من سنواتِ التشرُّد
كم آنستْكِ طيورُ السنونو
ونحن على الرمل نلهو
ويقرعِ في السمع ذاك العويلُ
الدفين.

- ٣ -

خرجنا لنلعبَ
أحمدُ كان يرى ما نراه جميعاً
بنظّارتيْهِ
ولكنّه لا يقولُ
يَرى ويُسِرُّ
فهل كان يبصر أبعد ممّا يرى؟
أحمدُ، غامضٌ، وكَتومٌ
يرى، لا يقولُ
ويُعْجبُني راضِياً خلف نظّارتيْهِ
أتيْنا معاً،
ومضيْنا معاً

لم نكنْ وحْدَنا
كان صيفٌ يُضرِّج وجه القرى
ويُبدِّدُنا في فضاءِ الغناءِ
فكُنّا أقلَّ من اثنينْ
أكثرَ من أنْ نُعَدَّ
وكان الغناءُ هواءً لكيْ نتنفَّسَ
ملءَ زمانٍ مضى، وزمانٍ سيأتي
«أنا من ضيَّعَ في الأوهام عُمْرَهْ»
وأحمدُ ينظُرُ من خلفِ نظّارتيْهِ
وحين مضيْنا نطارد بعض البناتِ
بكى اللحن بين أصابعنا
وانتشى الليلُ
وانتشرت «أمُّ كلثومْ»
فوق وجه المدى
صوراً للهوى
والسلام الطويلِ الطويل
لماذا بكى اللحنُ بين أصابعنا؟
والنجومْ،
هل أضاءت علينا؟
ونحن نجالس بعض البناتِ
فبان لها خجلٌ سال مِنّا على قدم الليلِ
من كان يحسب أن الأمان الذي
قد سكرْنا به
لن يدومْ؟
والسلام الطويل الذي كان يغمرُنا
في الليالي
سيشرُدُ بين الشعابِ
ككلبٍ طريدٍ؟
إذن، كان حُلْماً
وكان من السهلِ ألا نموتَ
لذا، لم نَمُتْ
بل غفونا على كتفِ الليل من
نشوةٍ
كان نوماً طفيفاً
تطالعنا فيه شمسٌ لأشواقِنا
شمسنا العنكبوتُ
لم نَمُتْ،
كان يُرهُبنا أن نُفكِّر في الموتِ،
كُنّا إذن لا نموتُ.

- ٤ -

خرجنا لنلعبَ
مقْهىً صغيرٌ،
وليلٌ عليلٌ يدغدغُ صيف القُرى
ونُبدِّدُ ساعاتِهِ حول طاولةٍ لِلَّعِبْ.
كيف كُنّا نبدِّدُ ليلاً عليلاً يدغدغ
صيف القرى
حول طاولةٍ لِلَّعِبْ؟
كيف كُنّا نجدِّد أرواحنا كلَّ يومٍ
لنُطْفئها من جديدٍ؟
وأحمدُ لا يُحْسِنُ اللِعْبَ،
يجلس منضبطاً كالموظَّفِ
لايتبيَّنُ أوراقه جيِّداً
ويحدِّقُ من خلف نظّارتيهِ
ليُخْمدَ عينيْه فيما يراه،
وكنتُ أشاركه، نظراتِ الأسى
والتَعَبْ.
وأقلُّ سريعاً، فأمضي
وأحمد يبقى
ولا ينثني
وهْو لا يُحْسِنُ اللِعْبَ
كم كنتُ أعجبُ منهُ
وكم كان يُعْجبني راضياً خلف
نظّارتيْهِ
ولا يتبيَّنُ أوراقه جيِّداً.
هكذا كان يأخذنا اللهْوُ
هل كان لهواً؟
ومقهىً صغيرٌ عرفناهُ يوْماً
تولّى بأيّامِنا
- كيف لم أنتبِهْ؟! -
راح ينهبُ صيفَ القرى
وشتاءَ المدينة
ينهبُ أرواحنا كلَّ يومٍ
تُرى، كيف كنّا نجدِّدُها؟
أيُّها اللهْوُ، من أنتَ؟
هلّا عرفتُك يوماً؟
وأنتَ، أتعرفُني؟
كيف ألقاك حقّاً؟
لأنسى قليلاً،
فألهو!

- ٥ -

خرجنا لنلعبَ
كان الفضاءُ الأثيرُ لصيْحاتنا قد
تهدَّمَ
وانجاب منه سحابٌ تقطَّر في ظنِّنا
زمناً،
كان ذاك المراحُ الذي لاطفتْهُ
خطانا الصغيرةُ
قد راح يهتزُّ
تحت خطىً من حديدٍ ونار،
وبيروتُ كانت قد انطفأتْ
بعدما خطفتْنا كساحرةٍ
أو قدتْ سحرها
فارتمَيْنا به
كالفراشاتِ إذ ترتمي في اللَّهَبْ.
خرجنا لنلعبَ

أيُّ رمادٍ هو الآن منبسطٌ للَّعِبْ؟
مات سحْرٌ لبيروتَ،
غاب مراحٌ قديمٌ لنا،
والحروبُ التي غيَّبتْ أو أماتَتْ
أقامتْ لديْنا
وصِرْنا إذا ما هربنا
هربْنا بها
سكنتْ في البيوتِ،
وراحتْ تؤثِّثُها،
وتُغيِّر ما أثَّثتْ بين حينٍ وآخَرَ،
صِرْنا متاعاً لها،
وغَـدَتْ بيتَنـا في الإقـامـةِ أو في
الهربْ.
لم نَمُتْ،
راح يلهو بنا الموتُ
كي لا نفوزَ به مرّةً واحِدةْ
راح يلهـو بنـا، فغـدونـا نـموتُ
مراراً،
هنا أو هناك،
ونحيا على فسْحةِ الأملِ البائدهْ.
خرجنا نلعب
أيُّ فضاءٍ هو الآنَ؟
أيُّ رمادٍ هو الآن؟
«يا أحمدُ المرتجى في كلِّ نائبةٍ»
قُمْ لنجريَ خلف سرابٍ
ينادي بنا فوق قمّةِ هذا الخرابِ
ألسْتَ ترى ما يدور بعيداً؟
يدور على نفسهْ،
يترنّح من نشوةٍ،
أو كمن قد تلقّى على رأسه ضربةً
قُمْ لنجريَ في جوف هذا الظلامِ
نُفتش في طَيِّه
عن شظايا لأرواحنا
لم تزلْ تتوقدُ فيها بقايا وميضٍ.
أتذكُرُ ما كان من أمْسِنا؟
لم يكنْ غيرَ وهْمٍ،
أما كان يحلو لنا وهْمُنا؟
قُمْ نُجرِّبْ إذن حظَّنا من جديدٍ
عسانا، ونحن نُهوِّمُ في جوف هذا
الظلامِ،
نرى شفقاً شارداً
من سماءٍ لنا
غرقتْ في الزمانِ الغريق
تعالَ نُجرِّبْ
ألا نتدبَّرُ نرْداً جديداً لأيّامنا
كي نجرِّبَ ثانيةً حظَّنا؟
أيُّها المرتجى
قُمْ بنا
ولْيكُنْ نرْدُنا خائباً
مثلما كان دوماً
ولكنّنا حين نرْميهِ
نرمي بخيْبتِنا في الحطامْ
وننادي به:
أيُّها النرْدُ
فرْفِرْ
توهَّجْ، وذُبْ
كالمتيَّمِ
في جوفِ هذا الظلامْ

صدر حديثاً

الفتاة الايطالية

تأليف: ايريس مردوخ
ترجمة: فؤاد كامل

هرب ادموند من عائلته إلى حياة متوحّدة. وحين عاد للمشاركة في جنازة أمّه، وجد نفسه داخل مشاكل قديمة ومريعة، كما وجد مشاكل جديدة أخرى.

واكتشف من جديد خادمة العائلة الأزليّة، الفتاة الايطالية الدائمة التغيُّر والتي كانت أبداً الأمّ الأخرى. وهذه العودة الخاصّة إلى الأمّ تخفي عدة مفاجآت لادموند.

وقد علقت جريدة الدايلي تلغراف على الرواية بأن مؤلفتها ايريس مردوخ هي أفضل روائية انكليزية معاصرة.

منشورات دار الآداب